توكيد الذات

للأستاذ أديب عباسي

لمحت فى ذات صباح ، وأنا فى الشمس انفض عن نفسى بقية من ليل ، هرًّا مهزولا يسير متوجِّسا متسرِّقا على مقربة منى ؛ ولم يطل بهذا الهرّ ارتيابه وتوجُّسه ، وتحقق له سوء ظنّه بكلاب الحى ، إذ لم يمض إلا قليلا حتى أقبل عليه من إحدى الجوادّ القريبة كلب بطِر شديد الجانب شديد العزم على أذيته ، كأن له ترة قديمة عنده وحسابا ينوى وفاءه

وأدرك هرّنا أىّ شىء لا بدّ لاحقٌ به ، وأدرك كذلك أن الهرب ليس بمنجيه ولا مخلِّصه من هذا الذى أخذ عليه الطريق وسدّ المهرب . فاستدار فى الحال وازبأرّ وهرّ هريراً وأبدى عن أنيابه ، وأثار بالخصم بصره ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، وتنفّش شعره ، وتقوّس ظهره ، وشال ذنبه ، ووقف يتحفّز

ولم يفت كلبنا المتدى مغزى ذلك جميعاً ، ووقف تلقاءه يرمقه ويروزه ببصره مليًّا ، حتى إذا بدا له أن الهجوم من الناحية الأمامية — وقد حصنتها مخالب مرهفة وأنياب حديدة — قد لا يخلو من خطر أكيد ، انفتل منسلاً كدأب الكلاب ، وباغته من الخلف مباغتة استطار لها لبّه وانخلع قلبه . وأقبلت كلاب الحى تتعاوى من بعيد ومن قريب ، وكلها فى البغى والاثم سواء ، فكأنها وكأنه ما عناه الشاعر حين قال :

تكاثرت (الكلاب) على خراش فلا يدرى خراش ما (يصدّ)

وهممت عندها أن أقوم وأنجد هرّنا المسكين وأذبّ عنه هذه العرجلة الباغية من الكلاب ، إلا أن هرّنا لم يدع لى لأتدخل ، وحلّ الاشكال بطريقة مسدّدة من إلهام الطبع ، وهداية الغريزة ، واستعداد الفطرة ، إذ عمد إلى هذه الكلاب يستلّ سخيمتها ويزيل شرّها بالاستسلام لها والكف عن قتالها ، ولسان حاله يقول :

ولو كان « كلبا » واحدا لاحتملته

ولكنه « كلب » وثانٍ وثالث

ولم تنتظر الكلاب منه حركة كهذه ، فوجمت حياله تفكر ماذا هى صانعة بعد الذى رأت من استسلامه وانقطاعه عن كل مظهر من مظاهر الخصومة والدفاع ، وكأن كلابنا فهمت عنه ما أراد وفطنت إلى مغزى حركته تلك ، وأدركت دلالتها ومعناها ، فابذعرّت قائمة بما هيأ لها هرنا المغلوب من معانى الفوز والغلب ؛ وقام هرنا وسار لطيّته يرهف سمعه ويقلّب بصره ذات اليمين وذات الشمال ، ويُعدُّ نفسه مرّة ثانية لتمثيل الدور نفسه إذا أحوجه الأمر

* * *

وفكرت مليا فيما شهدت وطفقت أسائل نفسى : أنحن هنا أمام ظاهرة خاصة من ظواهر الحياة قاصرة على الكلاب وخلافها من ذوات الظفر والناب ، أم نحن أمام ظاهرة عامة شاملة من ظواهر الحياة تشمل الانسان والحيوان جميعاً ويخضع كافة الأحياء لحكمها وقيودها ؟

ولم يطل أمد الهجس والارتياب ، وأيقنت بعد القليل من التدبر أنها حالة عامة شاملة كأعم وأشمل ما تكونه حال من أحوال الحياة وظواهرها

وتسأل : ما تلك الظاهرة ، وما طبيعتها ؟ ولا نطيل فهى مما وصفنا ورأيت ما يمكن أن ندعوه « توكيد الذات » وإبراز الشخصية . فكلبنا المتعدى الأول لما هاجم الهرّ بلا عداوة سابقة أو حقد قديم ، إنما فعلها ليتثبت من قدرة نفسه وحدة أنيابه وقوة عضله ، وليؤكد لنفسه أنه ذو غلبة وبطش ، ومثله فى ذلك الكلاب الأخرى ، وعليه لما رأت الهر يتخاذل ويتنازل لها جميعاً عن كل حق من حقوق توكيد الذات غادرته ولم تؤذه

وأنت ترى مما أثبتنا هنا من عمل الكلاب أن هذا الدافع إلى توكيد الذات فى الحيوان دافع فطرى غريزى لايخرج بمجمله عن معنى القتال الباشر الذى تمارسه جميع الحيوانات على اختلاف طفيف بينها فى أساليبه وطرائقه

أما فى الانسان فيتخذ هذا الدافع من توكيد الذات وتقريرها شتى المظاهر ومختلف الأشكال والصور ، ولن تخطىء مظاهره — فى لون من ألوانه — فى الطفل واليافع والشاب والشيخ جميعاً

والطفل يبدأ سلوكه يتأثر بهذا الدافع من العام الأول فى

عمره ، وكانا يعرف جيداً ما هى الأساليب التى يصطنعها الصغار لينتهوا إليهم الكبار ويستجلبوا رضاهم وتقديرهم ، ومن هنا كان الفهم الصحيح للطفولة يوجب على المربين الانتباه الشديد لهذا الدافع والانتفاع به فى توجيه الصغار توجيهاً صالحاً وتحريضهم على الاجادة والتبريز فى حدود إمكانهم وكفاياتهم . وفى الحق ليس أقتل لروح الطموح فى الطفل ولا أدعى لفشله من أن يغفل الآباء والمربون هذا الطور الدقيق فى حياة الطفل ويتركوه وشأنه بلا تشجيع ولا استحسان حيث يُستحقان ، أو يعكسوا الأمر عليه ويملأوا سمعه بالنقد ويقابلوا حماسته بالفتور وثقته من نفسه بالتشكيك والريبة . ولا نغالى إذا نحسب أن أكثر الفاشلين فى الحياة هم ممن كانت طفولتهم نزاعاً بين إهمال الوالدين وقسوة المحيط وبين ما ركّب فى نفوسهم وغرس فى طباعهم من ميل جامح قوى لتأييد النفس وتوكيد الذات . وكم من طفل أعجزه أن يحوز رضى البيئة وتقدير الوالدين بأساليب مقبولة ووسائل سليمة ، فراح بعدها يصطنع أغرب الوسائل وأخطرها فى حاضر حياته وآتيها ، كأن يعمد إلى نفسه يؤذيها أذى بليغاً أو يعمد إلى الغير يؤذيه مثل ذلك الأذى ، أو كأن يعمد إلى الآنية يحطمها والثياب يمزقها ولسان حاله يقول : هوذا أنا أثبت كيانى وأؤكد اقتدارى وكفايتى بما ترون إن كان لا يعجبكم ولا ينبهكم الى إلا مثل ما تشهدون

وليس من المتعذر أن تتصور حال مثل هذا الطفل ، إذ يشب ، كيف تكون . وليس من الصعب أن تتبين فى مثل هذه الأعمال الشاذة أولى بوادر الأجرام والخروج على النظام وأوضاع الاجتماع . يحكى أن افراد الشرطة فى أمريكا ألقوا القبض ، بعد لأى ، على لص خطير اعتاد أن يتصدّى للقطارات ويسلبها ، واقتادوه إلى قاعة التحقيق . وبعد استجواب سيكولوجى دقيق دهش المحققون إذ استبان لهم أن هذا اللص كان فى طفولته وحداثته كأشد الناس حياءً وخجلاً . ولما سئل فيمَ إصراره على أعمال العنف والاجرام أجاب بأنه إنما يفعلها ليؤكد لنفسه أنه ليس من الحياء وخور العزيمة كالذى يحسّ ويشعر

هذا ويجب ألاّ يفوتنا أن معظم أنظمة التربية الحديثة مبنية على هذا الميل مستهدية به . فنظام الصفوف والباريات والجوائز وما إليها من وسائل التحضيض والتشجيع تتهدّى هذا الميل وتستغله . وليس من السهل أبداً أن تستبدل بهذا الدافع للعمل والاغراء به دافعاً آخر من ميول النفس وأهوائها

ويشب الطفل فيجد نفسه بين الأمر الواقع من جد الحياة وبين هذا الميل القوى الذى لا يغفل ولا يهادن ، ويجد نفسه بين المدد الذى لا يحصى من مثبّطات العزم ومفترات السعى وبين ما أجّج فى نفسه وغرس فى طبعه من حبّ الغلب وشهوة الفوز وبروز الشخصية . فاذا أسعدته الهمّة ولاءمته الظروف وسار سيرة ناجحة فى الحياة نشأ نشأة بعيدة إجمالاً من شذوذ الطبع وغرابة الخلق وما يصحبها من شذوذ العمل وانحراف السلوك . أما إذا عاندته الظروف وخانته الكفايه فهناك ما تشاء من شذوذ الطبع وغرابة السلوك . ولدينا صنوف وصنوف ممن ينشأون هذه النشأة الشاذة فى الحياة

فالمتقشفون هم إجمالاً نفر فشلوا فى الحياة بعد أن خوّضوا فيها ، أو قدروا الفشل قبل ذلك ، فاختصروا على أنفسهم العمل ووقفوا فى أول جادة الحياة وبداءة السعى دون أن يحاولوا مضياً فى الطريق وزيادة فى السعى . لقد أعياهم أن يغلبوا بيئتهم ويتغلبوا على ضعفهم ، فانقلبوا على أنفسهم — وهى أهون شىء عليهم — وأحالوا عليها بالخصومة وأضووها بالحرمان وتعوّضوا بخصومتها عن خصومة المحيط والأضداد من الخارج . ولسنا بالطبع نعزو إلى هذا العكس فى ميول الاستعلاء ورغبة البروز وتوكيد الذات جميع نماذج التقشف وإنكار الذات المشهودة ، إذ لا ريب أن من حوادث التقشف مالا يرجع فى بواعثه الى فشل المرء فى الحياة كالذى يُرى من تقشّف أناس قد تهيّأت لهم أسباب النجاح فى الحياة وذاقوا لذات الفوز والغلب ولكنهم مع ذلك آثروا حرمان الذات ومطاردة اللذات . على أننا نعود ونقرّر أن معظم حوادث التقشف هى فى مجملها وسيلة العجز فى تقرير الشخصية وتوكيد الذات

والحسد — كذلك — تعبير صامت واتجاه سلبى معكوس لدافع توكيد الذات . والحسد ينشأ ويتأصل فى النفوس كلما تسامت مطالب المرء وبعدت غايته ثم أعجزته القدرة وعاكسه المحيط فلم يسم ، عملاً وواقعاً ، الى مستوى مطالبه . ومن هنا يحسب

الأخلاقيون وعلماء النفس أن الحسد ظاهرة عامة شاملة بين الناس إذ كان النجاح المطلق الذى يرضى عنده المرء عن كل شيء فى الحياة مطلباً صعباً وغاية لا يسمو اليها جهد بشرى . ويخيل الينا أنه لو يسر لامرئ من الناس كل أمانيه ومهدت فى سبيله جميع الصعاب ودمثت جميع العقبات وأنيل كافة ما تتشهاه النفوس وتصبو اليه، لفكر بحد وحرقة زائدة فى أن ينال كمنزلة الآلهة من خلود مطلق وعلم كامل وقدرة فائقة . ومرجع ذلك أن المرء بطبيعة تكوينه النفسى والفكرى مثالى يكره النقص أبداً ويتطلب المزيد والكمال ، والكمال لا حد له ولا انتهاء . وهذا لا ريب يفسر لنا لماذا ينسينا نجاحنا الكبير نجاحنا الصغير ، ولماذا ينسينا فشلنا الأكبر أبداً فشلنا الأصغر

والرجل الحساس هو الآخر صنف خاص من الناس فشل فى أن يؤكد نفسه ويرغم المحيط على اعتبارها وتقديرها بالقدر القائم له منها فى خياله ، فغدا — لذلك — سيء الظن بالناس كثير الارتياب لهم ، وصار لكل حركة من حركاتهم معنى الاجتداء عليه والانتقاص له والزراية به ، وغدا — كذلك — قليل الاحتمال دائم النفرة سيء التقدير

ومثل الحساس — على اختلاف طفيف — الرجل الحيي . هذا اذا فشل فى توكيد نفسه وتميز شخصه ، قام فى وهمه أنه امرؤ لا يصلح للعمل ولا يقوى على الجهاد ، فانزوى منطوياً على نفسه عاكفاً على همومه مجتراً آلامه . إلا أن بينه وبين الحساس فرقاً أن الحساس يعالن الناس غالباً بما يقدر من سوء رأيهم فيه ويحتج على ذلك ويدافع عن نفسه ، بينما الحيي فى غالب أمره لا يفعل شيئاً من ذلك بل يتجرع آلامه صابراً متحاشياً ، بقدر الامكان ، أن يجيء والناس بسبيل واحد . ومرجع الفرق هنا الى أن الحساس له رأى طيب فى نفسه بالاضافة الى ما يتصور من سوء رأى الغير به ، بينما الحيي يسيء الظن بذاته ويعتقد أن الناس لهم فيه مثل رأيه فى نفسه

ينضاف الى هذه المظاهر المعكوسة من توكيد الذات مظهر آخر هو مظهر الاسراف فى الغرور وتقدير الذات . وهو ينشأ إذ يشب المرء — لأسباب عدة من إساءة التوجيه — على اعتقاد قوى أنه امرؤ فوق الناس ، وأن من سخافة الأقدار وغفلة الزمان وجور البيئة أن يولد بين الناس ، يعيش كما يعيشون ، فيشقى كما يشقون وينعم كما ينعمون ويكتفى من الأمانى والآمال بمثل مايتمنون ويؤملون ، ويخيل إليك كأنه عاتب على ربه الذى خلق من الناس غيره ! !

هذا وقد يتخذ الغرور مظهراً آخر غير مظهره العام حده التشدق بالكمال ونقد الزمان والتبرم بالبيئة ، ويسير فى اتجاه معاكس أو موارب كالذى يرى فى نفر من الناس لم يستطيعوا أن يفرضوا أنفسهم على المحيط ولم يستطيعوا أن يجاهروا بكمالهم ويمالئوا الناس بكفاياتهم واقتدارهم (كما يقدرون لأنفسهم) ، فانقلبوا — لذلك — صنفاً متواضعاً من الناس لا يهمهم — ظاهراً فقط — أن يتلبسوا حالات زرية وينتقدوا أنفسهم على مشهد ومسمع من الناس . وقد تغش غير الفطن مثل هذه المظاهر حتى ليعتقد اللاحظ السطحى الذى لم يسبر غور الأمور أن هذه المظاهر تصدر عن عقيدة صادقة بالنفس وإخلاص فى التقدير . إلا أنها مظاهر — على كل حال — لا تخفى على المتبصر الذى لا يخدعه ظاهر الاخلاص وجودة التمثيل . يحكى أن سقراط رأى فتى أثينياً موسراً يعتلى منصة الخطابة فى أسمال بالية وثياب مهلهلة ، فنظر فيه سقراط متفرساً زمناً ثم خاطبه بلهجة صارمة : أيها الأثيني الشاب ، إنى لأكاد أرى الغرور والكبرياء ينزان من اهابك ، ويطلان من وراء كل خرق ورقعة من ثيابك !

تلك بعض المظاهر المسرفة لدافع توكيد الذات . وأما مظاهره الطبيعية التى لا إغراب فيها ولا شذوذ فتقع فى أشكال وألوان عديدة لا تقل عن مظاهر الشذوذ والغرابة

من ذلك هذا الميل العام الشامل لدى جميع الأمم والأجناس إلى التقسيم والتدريج وتأليف الطبقات يتميز بعضها من بعض ويعلو بعضها بعضاً ، ثم هذا السعى الدائب والاشرئباب الدائم من الناس إلى تغيير الأمكنة وتبديل المنزل حيث يستحب التغيير والتبديل ، ثم ذلك الجمود على ذات الحال والحرص على البقاء فى ذات المنزلة حيث لا يشتهى التغيير والانتقال . ولعله ما كان يتحول أبناء الطبقة من الطبقات ولا يتزحزحون عن محلهم صعوداً ولا هبوطاً لو خلا الناس من حافز توكيد الذات والاستباق إلى الأمكنة العلية والمنازل البارزة

وكما يقع التزاحم على المنازل الرفيعة بين الطبقات يقع كذلك بين الأجناس والأمم والممالك والدول . ولعل دافعاً قوياً من دوافع

الحروب كان يزول لو زالت من النفوس رغبة الامتياز وهوى الاستعلاء

وفى الناحية الفردية يظهر الميل إلى توكيد الذات توكيداً طبيعياً مقبولاً فى مظاهر عديدة ؛ منها رغبة التميز والتبذير فى الاكتشاف والاختراع والابداع الفنى والأدبى ؛ ومنها رغبة البروز والامتياز فى مجال الاقتصاد وجمع الثروة ؛ ومنها حب الغلب والانتصار فى ميادين الرياضة البدنية من محاضرة ومصارعة وملاكمة وخلافها ؛ ومنها — كذلك — حب الانتصار فى ميادين الرياضة العقلية والترويح عن النفس بالنكتة البارعة والفكاهة الطليقة والهزل المستجدّ ؛ ومنها حب التبرز والسمو فى ميادين القيادة الاجتماعية ؛ ومنها شهوة التغلب والقهر فى ميادين الحب والغزل ، ومنها خلاف هذا شىء كثير

فرغبة الامتياز وشهرة البروز فى ميادين العلم والاكتشاف والاختراع ، وفى ميدانى الابداع الفنى والأدبى ، هى فى أول دوافع الانشاء والابداع العلمى والفنى . وليست الرغبة فى الاختراع والاكتشاف ، وفى الابداع الفنى ناجمة فقط مما ركب فى النفوس من غرائز الاستغراب وحب الطرافة وما يكون من تسامى دوافع الغريزة الجنسية من مستواها الحسى إلى مستوى أعلى وأجلّ ، إنما هى ناجمة إلى حدّ كبير مما رُكّب فى الطباع من ميل قوى إلى تقرير الذات والتغلب على الصعاب والعقبات

وفى مجال جمع الثروة وحشد المال مظهرٌ توكيد الذات ما تراه من عدم وقوف الناس فى جمع الثروة عند الحد الذى ييسر جميع مطالب العيش وأسباب الرفاه والدعة . فالمرء يعمل أولاً لرد غائلة الجوع وسد الحاجات الضرورية ، فاذا تيسر له مقدار من الثراء يحقّق له سدّ الحاجة وطرد الفاقة انتقل حافز الانتاج من مجال الحسّ إلى مجال الشعور ، وغدا هدف الانتاج وتكثيره لذة التميز والانفراد بالشىء . ومن هنا قلما نرى ربًّا من أرباب المال يعتريه الفتور والوناء فى الجمع والانتاج ، لأن فى ذلك وسيلة صامتة يكاثر بها الأعداء ويراغم الخصوم ويدل على الأقران . وهذا الدافع لا ريب يفسر لنا تفسيراً مقبولاً كثيراً من أنواع الاستملاك السخيف ، كشهوة جميع الطوابع وتواقيع العظماء ومخطوطات الكتاب ، وخلاف هذا مما لا قيمة له فى ذاته ، وإنما كل قيمته ما يشعر مالكه بلذة الانفراد بالشىء والامتياز عن الناس ولو بالسخيف الذى لا قيمة له فى ذاته ولا وزن

وفى ميادين الرياضة البدنية من أثر هذا الدافع أن اللاعبين والمتثاقفين والمتحاضرين يقررون أشخاصهم ويؤكدون ذواتهم لدى النظارة والشاهدين . ولولا ذلك لظلت الألعاب الرياضية ظاهرة فردية أكثر منها ظاهرة اجتماعية . وأنت تلمس أثر ذلك جيداً من الحماس الذى يستولى على قلوب اللاعبين كلما كثر عدد المشاهدين وزاد تحريضهم وتحمسهم للاعبين . ولو كان ترويض الأجسام وحده هو المقصود من الألعاب الرياضية لاكتفى اللاعبون بملاعبة ذواتهم ومثاقفة أنفسهم وحسب

وفى ميدان الرياضة العقلية والترويح عن النفس بالنكتة والهزل يقع هذا الميل موقعاً أول . وما يؤلف من نكتة ويروج من نادرة ويذيع من فكاهة مرجعه فى الأصل ميل النفوس الى التسربة بالظهور والبروز والاستعلاء على الخصم المشهود أو الغائب . فنحن إذ نضحك من موضوع النادرة أو الفكاهة ، إنما نضحك لأنها تضع لنا شخصاً أو أشخاصاً موضعاً غريباً ضعيفاً يثير فينا حس الاستعلاء والبراءة من الغفلة أو الجهل أو البقاء . على أن النادرة — فى الأحوال الطبيعية — تعجز العجز كله أن تستثير الضحك فينا إذا بلغ الضعف فى موضوعها حسّ الاستعلاء ، ويثير بديلاً منه حسّ الاشفاق والخشية أن يصيب هذا الموضوع شرّ أو أذى بليغ . ومن هنا قد يصوّر لك الكاتب صورة هزلية تستثير الضحك والابتسام ، ولكنك لا يسعك إلا أن تجم وتكف عن الابتسام والضحك متى بلغ كاتبك بموضوع هزله حداً مخطراً كأن يتعرّض لخطر أكيد أو يضحى على حال تدعو إلى الاشفاق والأسى ، ولن يعيدك إلى استشعار النبطة والسرور إلا أن يعيد لك الكاتب موضوع هزله إلى مثل حاله الأولى التى لا تبلغ من القوة إضعاف حس الاستعلاء فيك ولا تبلغ من الضعف توليد حسّ الاشفاق والأسى فى نفسك

والميل إلى توكيد الذات وما يستتبعه من شهوة البروز ورغبة الاستعلاء تعمل عملها الأكيد فى ميدان العمل الاجتماعى وفى مجال القيادة الاجتماعية ، إذ كان الانقياد وحب التعاون يستحيلان على الجمهور اذا لم يقم فيه القادة الذين يفرضون ذواتهم فرضاً على الناس ويقودونهم قيادة حازمة قوية الى حيث

يشاءون لهم من رفعة وخير وصلاح

وقد يستدرك القارىء هنا ويسأل : أيكون الميل الى توكيد الذات وشهوة البروز فى مجال القيادة والزعامة عامل خير ووسيلة صلاح فى ميادين العمل الاجتماعى ، ونحن نشهد من آثارهما هذا الميل المسرف والتكالب المزرى على أسباب البروز والرفعة فى ميادين الزعامة المختلفة ، وان يكن ذلك — فى كثير الأحيان — على حساب الأمانى العامة واهدار المصالح الكبرى للشعب ؟

ونجيب أن الميل إلى توكيد الذات عن طريق السيادة الاجتماعية ككل ميل آخر من ميول النفس يضحى أداة فاسدة ووسيلة هادمة إذا خبثت النفوس وأسفّت الغاية ، وعلى أن فى يد الشعب — فى معظم أمره — القدرة على كبح هذا الميل وحصره ضمن حدود الصالح العام ، بما يداول من ثقته بين الزعماء والقادة وبما يشهّر بالقيادة النفعية المتاجرة وبما يوليها من المقت والمحاسبة الشديدة ، مما يقمع فى القيادة عواطف الأثرة وحب الانتهاز والاستغلال حيث تهمّ أن تبرز وتستعلن . ولا مراء فى أن الانتهاز والاستغلال عن طريق القيادة الاجتماعية يقلان فى شرقنا إجمالاً قلة مطردة بما تحدثه التربية من رفع مستوى التعليم والتنبه الفكرى وتعميق غور العواطف الاجتماعية

وأخيراً أثر هذا الميل فى ميدان الحب ، فنرى أن دافع توكيد الذات هذا يعمل عمله القوى فى طلب التنويع فى الحب وعدم الاكتفاء بحبيب واحد يقصر عليه الهم وينيط به القلب إلى آخر العمر . وذلك أن من الناس من يبلغ حسّ الاستعلاء وشهوة الغلب ورغبة البروز عندهم مبلغاً يطغى عندهم على عاطفة الحب الصحيح فيغدو لا يهمهم من يحبون بقدر ما يهمهم كم من الخلق وقع فى حبائل حبهم ، فكأنهم بهذا يقيسون قدرتهم على الغلب والفوز فى ميادين الحب بعدد اللواتى يهمّهن ذكرهم واستحوذت على قلوبهن صورهم

ونقف عند هذا الحد من التفصيل والتمثيل لهذا الميل فى أحواله الطبيعية والشاذة موقنين أن الاستقصاء التام والجلاء الكامل لجميع آثاره إنما هو استقصاء لأعظم حالات النفس أثراً مطبوعاً فى الخلق والسلوك وأشدها دافعاً وحافزاً على العمل ، وليس هذا المجال مجال ذلك

أديب عباسى

من (الكتاب الذهبى) قبل أن يطبع

لغة الأحكام والمرافعات

للأستاذ زكى عريبى

— ٤ —

لغة المرافعة لغة التماس

ويجب ألا يغرب عن الذهن أن المترافع ملتمس ، فلغته يجب أن تكون لغة التماس يحوطها الاحترام الكلى للهيئة التى يترافع أمامها . قد يكون أغزر من سامعيه علماً وأظهر فضلاً ، وقد يكون كلامه لهم تعليما ، ولكن عبارته يجب أن تكون عبارة إكبار وإعظام

والاحترام والاكبار لا يقتضى التذلل ولا الضعة فى توجيه الخطاب . وشد ما أكره عبارة « سيدى البيه » يوجهها بعض الزملاء إلى قاض ليس « بيكا » ولا هو بحاجة إلى رتبة تخلع عليه على سبيل التأدب الزائد وقد يحمل خلعها على أنه زلفى وتقرب

وفى الوقت عينه لغة جرأة

على أنه إن كانت لغة المرافعة لغة تعظيم وتوقير فهى فى الوقت عينه لغة عزة وجرأة . وقد روى التاريخ مواقف للمحامين رقوا فيها إلى درجة البطولة . انظر إلى ديبيز وقد دعاه لويس السادس عشر إلى الدفاع عنه أمام الجمعية التأسيسية فى وقت جمعت فيه هذه الهيئة فى يدها جميع السلطات ، وأصبح مجرد الاشارة إلى الملوكية جريمة . انظر إليه وهو يواجه هيئة ضمنها أمثال روبسبيير ودانتون ومارات . انظر إليه وهو يقرع أسماعهم وقلوبهم بهذا الخطاب الخالد

« أيها المواطنون ! سأخاطبكم بلسان الرجل الحر . إنى أبحث بينكم عن قضاة فلا أجد غير متهمين

أتريدون أن تجعلوا من أنفسكم قضاة « للويس » وأنتم خصومه ؟ أتريدون أن تجلسوا للحكم فى قضية لويس ولكم فيها رأى يجوب أوروبا من أقصاها إلى أقصاها ؟

أيكون لويس الفرنسوى الوحيد الذى لا يحميه قانون ولا يتبع فى محاكمته إجراء واحد صحيح ؟